الفصل التاسع

الدولة والمقدس في فكر محمد عبده

الفصل التاسع

الدولة والمقدس في فكر محمد عبده

يعد الأستاذ محمد عبده (1266 - 1323هـ) (849 - 1905م) رائد حركة تجديد الفكر الإسلامي في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. لكنّ محاولته لم تُؤت ثمارها، فأجهضتها عدة عوامل، منها ارتباط التحديث بالاستعمار في الوجدان والعقل المسلم، ممّا جعل التحديث متهمًا لأنه الفكر القادم من العدو المستعمر، فكل محاولة لنقد فكر الفقهاء حول الدولة الإسلامية متهمة بأنها نقد للإسلام، واستدعاء حرفي لنموذج الغرب ممثل الكفر، ومن ناحية أخرى كان لتلاشي المدرسة الفلسفية وانقطاع صلة المسلمين بها منذ قرون أثره في جمود العقل المسلم الذي آثر الانكفاء على نفسه ممجدا لذاته، قاده في ذلك جماعات دينية منغلقة، استبعدت التفكير بوصفه تنظيرا حول الإسلام، لا يعدو كونه فلسفة لا تنتج عملا، وقدمت نفسها بوصفها الحركات العملية الممثلة للإسلام في شموليته، مكتفية - بزعمها- أن المصحف دستورها، وكأن المصحف ينطق، وليس هم كرجال ينطقون لنا بفهمهم للمصحف، وتوقفت محاولات تجديد الفكر الإسلامي في عالمنا العربي لكن لم تتوقف حركة التاريخ فمضى ما يزيد عن قرن من الزمن، ومازلنا في النقطة نفسها التي ناقشها محمد عبده حول علاقة الإسلام بالدولة.

وبعد قرابة قرن من رحيل محمد عبده أعاد الدكتور محمد خلف الله أحد تلاميذ الشيخ أمين الخولي السؤال ثانية ما علاقة الإسلام بالدولة؟؟ في محاولة منه للتفريق بين علاقة الإسلام الوثيقة بالمجتمع متى اختار الإيمان، وعلاقة الإسلام المنفصلة بشكل الدولة ونظم إدارتها؛ ليهدم المقولة التأسيسية للخطاب الديني «الإسلام دين ودولة»، فانتهى به البحث إلى ما كتبه محمد عبده حول علاقة الدولة بالوحي المقدس التي انتهت بوقوف علاقة القرآن بالدولة عند مبادئ عامة متمثلة في الحق والعدل ورعاية المصلحة العامة، فدراسة خلف الله هي إعادة طرح لأفكار الشيخ محمد عبده الذي كثيرا ما أشار إليه خلف الله بلقب «الأستاذ الإمام» كلمة رشيد رضا في تفسير المنار حين يريد استدعاء آراء الشيخ محمد عبده، ويُمثّل كتاب القرآن والدولة حلقةً متأخرةً في مسيرة بحثية ممتدة لخلف الله، فما انتهى إليه في تلك الدراسة يختلف في بعض جوانبه عما بدأه في كتاباته.

ونحاول هنا إبراز معالم تلك النظرية الفكرية في علاقة الإسلام بالدولة من خلال تلك الكلمات المفتاحية التي جعلتها فاتحة أبواب تلك الأفكار المتزاحمة في تراث محمد عبده: الإسلام بين الدين والتدين، حق التشريع بين الله ورجال الدين، الأمة مصدر السلطات، التأسيس العقلي للمفاهيم الدينية ذات الصلة بالدولة.

(1)

الإسلام بين الدين والتدين

من أبرز الإشكاليات في الفكر الإسلامي تداخل المفاهيم والتباس الدلالات في عقل الملقى والمتلقي فقد يريد المتحدث أو الكاتب من المفهوم دلالة ويدرك السامع أو القارئ دلالة أخرى، حيث لم تعد الألفاظ بإزاء دلالات محددة، فتختلف الدلالة من ذهن إلى آخر، ويصبح الحوار أحيانا نوعا من حوار «الطرشان» وهذا ما يجعلنا في واقعنا العربي نناقش قضايا بعينها مرات ومرات دون الوصول إلى معانٍ مشتركة أو نتائج ننطلق منها.

وهذا ما انتبه إليه مبكرا الشيخ محمد عبده حين كشف عن التباين الفكري حول المراد بالإسلام في وعي المسلمين العام، فميّز الشيخ محمد عبده بين مفهوم حقيقي وعُرفي للإسلام، فتحدّث عن الإسلام الحقيقي الثابت الذي بيَّنه القرآن الكريم بوصفه كتاب هداية إلهية يختلف تمامًا عن الإسلام العُرفي في لغة معاصريه الذين أطلقوا على التدين اسم الإسلام.[1]

(1) يقول الأستاذ محمد عبده في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: 19] فالدين في اللغة: الجزاء والطاعة والخضوع، أي سبب الجزاء، ويطلق على مجموع التكاليف التي يدين بها العباد لله فيكون بمعنى الملة والشرع. وقالوا: إن ما يكلف الله به العباد يسمى شرعا باعتبار وضعه وبيانه، ويسمى دينا باعتبار الخضوع وطاعة الشارع به، ويسمى ملة باعتبار جملة التكاليف، والإسلام مصدر أسلم وهو بيان يأتي بمعنى خضع واستسلم، وبمعنى أدى، يقال أسلمت الشيء إلى فلان إذا أديته إليه، وبمعنى دخل في السلم وهو بالفتح والكسر بمعنى الصلح والسلامة، وبالتحريك [بمعنى] الخالص من الشيء، ومنه قوله -تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ =

فمفهـوم الإسلام في القرآن بدلالتيه العامـة والخاصة لا يتفق مع إسلام

=وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾ [الزمر: 29] أي خالصا له لا يشاركه فيه من يشاكسه، وتسمية دين الحق إسلاما يناسب كل معنى من معاني الكلمة في اللغة، وأظهرها آخرها في الذكر لا سيما في هذا المقام، ويؤيده الآية الآتية وقوله - تعالى -: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النساء: 125] وقد وصف إبراهيم بالإسلام في عدة سور ، ووصف غيره من النبيين بذلك ، فعلم بذلك أن الحصر في قوله: إن الدين عند الله الإسلام يتناول جميع الملل التي جاء بها الأنبياء ; لأنه هو روحها الكلي الذي اتفقت فيه على اختلاف بعض التكاليف وصور الأعمال فيها؛ وبه كانوا يوصون... وبذلك كله تعلم أن المسلم الحقيقي في حكم القرآن من كان خالصا من شوائب الشرك بالرحمن ، مخلصا في أعماله مع الإيمان ، من أي ملة كان ، وفي أي زمان وجد ومكان ، وهذا هو المراد بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: 85] الآية.. ذلك أن الله -تعالى- شرع الدين لأمرين أصليين أحدهما: تصفية الأرواح وتخليص العقول من شوائب الاعتقاد بالسلطة الغيبية للمخلوقات، وقدرتها على التصرف في الكائنات؛ لتسلم من الخضوع والعبودية لمن هو من أمثالها، أو لما دونها في استعدادها وكمالها.

وثانيهما: إصلاح القلوب بحسن القصد في جميع الأعمال، وإخلاص النية لله وللناس، فمتى حصل هذان الأمران انطلقت الفطرة من قيودها العائقة لها عن بلوغ كمالها في أفرادها وجمعياتها، وهذان الأمران هما روح المراد من كلمة الإسلام، وأما أعمال العبادات فإنما شرعت لتربية هذا الروح الأمري في الروح الخلقي ; ولذلك شرط فيها النية والإخلاص ومتى تربى سهل على صاحبه القيام بسائر التكاليف الأدبية والمدنية التي يصل بها إلى المدينة الفاضلة وتحقيق أمنية الحكماء. آه ما أشد غفلة الناس عن حقيقة الإسلام؟! أي سعادة للناس تعلو عرفان كل فرد من أفرادهم أنه أوتي من الاستعداد ما أوتيه من يوصفون بالولاية والقداسة ويدلون بالزعامة والرياسة ، فمنهم من يستعبد بها الناس استعبادا روحانيا، ومنهم من يستعبدهم بها استعبادا سياسيا، وإخلاص كل فرد من أفرادهم في عمله الديني وعمله الدنيوي للناس، هذه السعادة هي روح الإسلام وحقيقته حجبتها عن بعضهم الرسوم العلمية والتقاليد المذهبية، وعن آخرين النزعات النظرية والتقاليد الوضعية، فالأولون يرمون بالكفر أو البدعة=

الجنسية في الاستعمال المعاصر، والإسلام في دلالته العامة في لغة الوحي هو الشرع والملة والدين أطلق على ملل الأنبياء جميعا من آدم إلى محمد عليهم السلام، فالأنبياء جميعا ومن تبعهم مسلمون، فالإسلام اسم قديم قدم الحياة الدينية، رسالتُه تحقيق الهداية بتصفية الأرواح وتخليص العقول من شوائب الاعتقاد بالسلطة الغيبية للمخلوقات، وقدرتها على التصرف في الكائنات؛ لتسلم من الخضوع والعبودية لمن هو من أمثالها. كما استعمل القرآن الكريم الإسلام بمفهومه الخاص اسما على ديانة محمد ﷺ ومن تبعه على دينه.

أما إسلام الجنسية أو الإسلام العرفي في لغة المسلمين وغير المسلمين في العصر الحديث فهو اسم يُوضع في خانة الديانة، أو هو ما عليه هؤلاء الأقوام المعرفون بالمسلمين من عقائد وعادات وتقاليد وأعمال، وأصبح الإسلام متغيّرا تبعا لفهم وسلوك مسلمي كل منطقة، باختصار: «الدين ما عليه المتدينون.» فالبوذية مفهومها ما عليه الناس المعرفون بالبوذية، واليهودية: ما عليه الشعب الذي يطلق عليه اسم اليهود، وهكذا.. و ينفصل -تدريجيا- الدين بهذا المفهوم من خلال ممارسات أتباعه عن أصل قواعده ومقاصده سواء كانت سماوية أو وضعية، وتكون العبرة بما عليه أهله، لا بذلك الأصل المجهول أو المعلوم.

وهذا هو سبب الفجوة بين اليهود والمسلمين رغم أنه لا يختلف إسلام محمد ﷺ عن إسلام موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

= كل من خالف مذاهبهم، والآخرون ينبذون بالغباوة والتعصب كل من لم يستعذب مشربهم، فمتى يكثر المسلمون الخالصون المخلصون..» ينظر: تفسير المنار، ج3، ص213، 214.

وجديـر بالذكر أنـه نُقل عن الصحابـة أنهم لم يفهمـوا تحريف التوراة بتحريـف نصها كما يظن المسلم المعاصر بـل بتحريف اليهود لتأويلها، «ما يقال من أن علمائهم بدَّلـوا مواضع من التوراة بحسب أغراضهم في ديانتهم فقـد قال ابن عباس على ما نقل عنه البخـاري في صحيحه أن ذلك بعيد وقال معـاذ الله أن تعمد أمـة من الأمم إلى كتابها المنزل عـلى نبيها فتبدله أو ما في معنـاه، قال و إنما بدلوه وحرّفوه بالتأويـل، و يشهد لذلك قوله تعالى وعندهم التـوراة فيها حكم الله ولو بدلوا من التوراة ألفاظها لم يكن عندهم التوراة التي فيها حكم الله، وما وقع في القرآن الكريم من نسبة التحريف والتبديل فيها إليهم فإنما المعْنى به التأويل.»[1]

وترتـب على تحويل الإسلام إلى جنسية ما نعيشـه اليوم من تعدد مفهوم الإسـلام بتعـدد ممارسـات المتدينين التي باتـت تُوصف بالإسـلام الجهادي، والإسلام السياسي، وغيرهـا.. «ولو أقيم الإسلام على أصله واستتبع مع ذلك رابطة الجنسية لم تكن هذه الرابطة إلا رابطة خير لأهلها غير ضارة بغيرهم لبنائهـا على قواعد العدل والفضل والرحمـة والإحسان، ولكن جعل الجنسية هو الأصل مفسد للدين الذي هو مناط سعادة الدارين.»[2]

(1) ابن خلدون: المقدمة، ج2، ص16.
(2) تفسير المنار، ج3، ص298.